الفصل السادس

مع المصطفى الضحوك ﷺ

١- الضحوك القتال من أسماء النبي ﷺ .

٢- دفع التعارض بين أحاديث ضحك النبي وحزنه.

٣- المصطفى ﷺ يضحك ويبتسم في أحلك الظروف وأشدها .

٤- موقف النبي من ضحك الاستهزاء .

obeikandl.com

مع المصطفى الضحوك ﷺ

لم يكن رسول الله ﷺ ـ كما ذكرنا سابقا ـ خارجاً عن الفطر السوية في فعل من أفعاله ، أو قول من أقواله ، ولقد صدق الأعرابي حين سئل عن سبب إيمانه بمحمد ﷺ فقال : ما أمر بشيء واستقبحه العقل . ولا نهى عن شيء واستحسنه العقل .

إن العقول السليمة ، والفطر السوية ، والطبائع المعتدلة ، والغرائز البشرية ، لا تعارض الدين ولا يعارضها الدين .

الضحوك القتال من أسماء النبي ﷺ :

ولقد عدد الإمام ابن القيم رحمه الله أسماء الرسول ﷺ وذكر منها «الضحوك القتال» ثم قال : وأما الضحوك القتال فاسمان مزدوجان ، لا يفرد أحدهما عن الآخر فإنه ضحوك في وجوه المؤمنين ، غير عابس ولا مقطب ولا غضوب ، ولا فظ ؛ قتّال لأعداء الله ، لا تأخذه فيهم لومة لائم[1] .

وقال أيضا : وأما صفته ﷺ في بعض الكتب المتقدمة بأنه «الضحوك القتال» فالمراد به أنه لا يمنعه ضحكه وحسن خلقه إذا كان حدا لله وحقا له . ولا يمنعه ذلك عن تبسمه في موضعه ، فيعطي كل حال ما يليق بتلك الحال فترك الضحك بالكلية من الكبر والتجبر وسوء الخلق ، وكثرته من الخفة والطيش ؛ والاعتدال بين ذلك[2].

والمتأمل لوصفه ﷺ الذي جمعه كتّاب السير والشمائل والصفات والأخلاق ؛ بل والحديث والتفسير ؛ يجد أنه ﷺ كان أميل إلى الضحك والتبسم ؛ تماشياً مع الفطرة التي فطر الله عليها البشر .

---

(١) انظر : زاد المعاد ، مرجع سابق ، ٩٤/١ .

(٢) انظر : هداية الحيارى ، ابن القيم ، ط الجامعة الإسلامية المدينة المنورة ، ١/ ٧٥ .

انظر إلى وصف جابر بن سمرة ، عن سماك بن حرب قال : قلت لجابر ابن سمرة ﷺ : أكنت تجالس رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم كثيرا ، كان لا يقوم من مصلاه الذي يصلي فيه حتى تطلع الشمس ، فإذا طلعت قام ، وكانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم[١].

وهذا جرير بن عبد الله يقول : ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت ، ولا رآني إلا تبسم في وجهي[٢].

وقد روى ابن عساكر عن أنس قوله : كان النبي ﷺ من أفكه الناس[٣].

وهذا كعب بن مالك يقول : كان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه ؛ كأن وجهه قطعة قمر[٤].

وحين وصف هند بن أبي هالة رسول الله ﷺ قال في وصفه : وإذا ضحك غض طرفه ، جُل ضحكه التبسم[٥].

ويحاول البعض أن يمنع الضحك بحجة هموم الدعوة ، وهم الدين ، بيد أن هذه حجة واهية ، فلم يكن هناك ، ولن يكون من هو أكثر اهتماماً بالدعوة من رسول الله ﷺ وليس هناك من تعددت لديه الواجبات كما تعددت لدى رسول الله ﷺ ، فلقد كان بأبي هو وأمي : إماماً للناس ، ومعلماً للخلق ، ومفقهاً للدين ، وحاكماً بين الناس ، وقاضياً بينهم ، ومجيشاً للجيوش ، وباعثاً للسرايا ، كما كان أباً رحيماً ، وزوجاً باراً ، وأخاً ودوداً ، وصديقاً وفيّاً ، ومع هذا كله فقد كان ﷺ ضحاكاً بساماً ، وتؤكد ذلك السيدة عائشة فتقول حين سألتها عمرة قالت :

---

(١) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٢٢) .

(٢) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٦٣١٤) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢١١/٥) والبيهقي في الشعب (٢٩٢/٦) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٤٩٣) .

(٤) رواه البخاري في المغازي (٤٤١٨) .

(٥) رواه الطبراني في الكبير (٢٢/ ١٥٥) والبيهقي في الشعب (٢/ ١٥٤) وقال الألباني في فقه السيرة ضعيف (٢٠٢) .

سألت عائشة كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا في البيت ؟ قالت : ألين الناس بساما ضحاكا[1].

وفي رواية عند الترمذي في العلل : عن عائشة أنها سئلت كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا في بيته ؟ فقالت : كان ألين الناس ، وأكرم الناس ، كان رجلاً من رجالكم ، إلا أنه كان ضحّاكاً بسّاماً .

ويقول أبو أمامة : « كان رسول الله ﷺ من أضحك الناس ، وأطيبهم نفسا »[2].

دفع التعارض بين أحاديث ضحك النبي ﷺ وحزنه :

وقد يظهر التعارض بين الأحاديث فيزيله قول الإمام السيوطي : « كان من أضحك الناس » لا ينافيه خبر « أنه كان لا يضحك إلا تبسما » لأن التبسم كان أغلب أحواله ، فمن أخبر به أخبر عن أكثر أحواله ؛ ولم يعرج على ذلك لندوره ، أو كل راوٍ روى بحسب ما شاهد ، فالاختلاف باختلاف المواطن والأزمان ، وقد يكون في ابتداء أمره كان يضحك حتى تبدو نواجذه ، وكان آخراً لا يضحك إلا تبسما [3].

وتقول عائشة رضي الله عنها : ما رأيت النبي ﷺ مستجمعاً قط ضاحكاً حتى أرى منه لهواته ؛ إنما كان يتبسم »[4].

ويؤكد ذلك عبد الله بن الحارث فيقول : ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ [5].

---

(١) رواه إسحاق بن راهويه (٢/ ٤٣٤) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٣٨٦) .

(٢) رواه الطبراني (٨/ ٢٠٨) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وفيه علي بن يزيد الألهاني ؛ وهو ضعيف (٨/٥٧٨) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٤٨٧) .

(٣) الجامع الصغير ، السيوطي ، ط دار طائر العلم جدة ، ص ٢٣٥ .

(٤) رواه البخاري في التفسير (٤٨٢٨) ومسلم في الكسوف (٨٩٩) .

(٥) رواه أحمد في المسند (١٧٧٠٤) وقال محققو المسند : حديث حسن . ورواه والترمذي (٣٦٤١) والبيهقي في الشعب (٨٠٤٧) وابن المبارك في الزهد (١٤٥) .

وفي رواية عن عبيد الله بن المغيرة سمعت عبد الله بن الحارث يقول : ما رأيت رسول الله ﷺ قط إلا متبسماً .

بل لقد كانت بعض المواقف تأخذ من رسول الله ﷺ كل المآخذ حتى يضحك ويستعلي به الضحك ـ ولكن ذلك على سبيل الندرة ـ فعن أبي أمامة قال : إن رسول الله ﷺ قال يوما لأصحابه : هل أصبح منكم اليوم صائماً ؟ فسكتوا فقال أبو بكر رضي الله عنه : أنا يا رسول الله . ثم قال : هل عاد أحد منكم اليوم مريضا ؟ فسكتوا ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : أنا يا رسول الله ، ثم قال : هل تصدق أحد منكم اليوم صدقة ؟ فسكتوا ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : أنا يا رسول الله ؟ فضحك رسول الله ﷺ **حتى استعلى به الضحك** . ثم قال : والذي نفسي بيده ما جمعهن في يوم واحد إلا مؤمن وإلا دخل بهن الجنة »[1].

ولربما ضحك ﷺ من حدث عاماً كاملاً ، كما في قصة نعيمان[2] التي ذكرنا من قبل .

بيد أن هذا لم يكن هو الحال الدائم أو الصفة الملازمة ، وهذا ما يؤكده حديث جابر حيث قال : « كان لا ينبعث في الضحك »[3]. وكان لا ينبعث في الضحك أي لا يسترسل فيه .

ولله در صاحب كتاب (تأويل مختلف الحديث) حين قال : فلو ترك رسول الله ﷺ طريق الطلاقة والهشاشة والدماثة إلى القطوب والعبوس والزماتة ؛ أخذ الناس أنفسهم بذلك على ما في مخالفة الغريزة من المشقة والعناء ، فمزح ﷺ ليمزحوا ، ووقف على أصحاب الدركلة[4] وهم يلعبون فقال : « خذوا

---

(١) رواه البيهقي في الكبرى والطبراني في الكبير (٨/ ٢٠٤) وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني في الكبير وفيه عبيد الله بن زحر وفيه كلام وقد وثق (٣/ ١٦٣) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٢/ ٢٤٤) وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٤٥٦) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٥٠٩) .

(٤) الدَّرْكِلة بكسر الدال والكاف لعبة للعجم ، وضرب من الرقص أيضا .

يا بني أرفدة ليعلم اليهود أن في ديننا فسحة»[1]، يريد ما يكون في العرسات لإعلان النكاح ، وفي المآدب لإظهار السرور .

وقد درج الصالحون والخيار على أخلاق رسول الله ﷺ في التبسم والطلاقة والمزاح بالكلام المجانب للقدح والشتم والكذب ؛ فكان علي ﷺ يكثر الدعابة . .

وكان ابن سيرين يضحك حتى يسيل لعابه .

وقال جرير في الفرزدق :

لقد أصبحت عرس الفرزدق ناشزا ولو رضيت رمح استه لاستقرت

وقال الفرزدق وتمثل به ابن سيرين :

نبئت أن فتاة كنت أخطبها عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول

أسنانها مائة أو زدن واحدة وسائر الخلق منها بعد مبطول

وسأله رجل عن هشام بن حسان فقال : توفي البارحة أما شعرت ؟ فجزع الرجل واسترجع ، فلما رأى جزعه قرأ ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ (الزمر:٤٢).

وكان زيد بن ثابت من أزمت الناس إذا خرج وأفكههم في بيته .

وقال أبو الدرداء : إني لأستجم نفسي ببعض الباطل كراهة أن أحمل عليها من الحق ما يملها .

وكان شريح يمزح في مجلس الحكم .

وكان الشعبي من أفكه الناس .

وكان صهيب مزّاحاً .

وكان أبو العالية مزّاحاً .

وكل هؤلاء إذا مزح أحدهم لم يفحش ولم يشتم ، ولم يغتب ولم يكذب ، وإنما يذم من المزاح ما خالطته هذه الخلال أو بعضها ، وأما الملاعب فلا بأس بها في المآدب [2].

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) انظر : تأويل مختلف الحديث ، ابن قتيبة ، مرجع سابق ، ١/ ٢٩٣ وما بعدها بتصرف .

المصطفى ﷺ يضحك ويبتسم في أحلك الظروف وأشدها :

بل إنه ﷺ كان يضحك في أحلك الظروف وأشدها ، وهو في ساحة القتال ، وفي ميدان المعركة ؛ ذكر ابن كثير في تفسيره : أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق رضي الله عنه وهما يدعوان ، أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم ، ثم استيقظ متبسماً ، فقال : أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النقع ، ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾(القمر:٤٥)، وقوله : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الأنفال:١١).[١]

وروي عن جابر قال : كنا نصلي مع رسول الله ﷺ في غزوة بدر إذ تبسم في صلاته فلما قضى الصلاة قلنا : يا رسول الله رأيناك تبسمت ؟ قال : « مر بي ميكائيل وعلى جناحه أثر غبار ، وهو راجع من طلب القوم ، فضحك إليّ فتبسمت إليه »[٢].

هذا في غزوة بدر ؛ أما في غزوة خيبر فيحكي لنا عبد الله بن مغفل موقفاً خاصاً به أضحك فيه النبي ﷺ في هذه الغزوة : فعن حميد بن هلال عن عبد الله ابن مغفل قال : أصبت جراباً من شحم يوم خيبر ، قال : فالتزمته فقلت : لا أعطي اليوم أحداً من هذا شيئاً ، قال : فالتفت فإذا رسول الله ﷺ **متبسماً**[٣].

ويبتسم أيضاً في حنين ؛ فعن سهل بن الحنظلية أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين حتى كانت عشية ، فحضرت الصلاة مع رسول الله ﷺ فجاء رجل فارس فقال : يا رسول الله إني انطلقت بين أيديكم حتى اطلعت جبل كذا وكذا ؛ فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشياههم فتبسم النبي ﷺ وقال : « تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله »[٤].

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ٢ / ٢٩٢ / دار الفكر بيروت ، ١٤٠١ هـ .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) رواه مسلم في الجهاد (١٧٧٢) .

(٤) رواه أبو داود في الجهاد (٢٥٠١) ورواه النسائي في الكبرى (٥/ ٢٧٣) والحاكم في مستدركه (٢/٩٣) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢١٨٣) .

وها هو ﷺ يبتسم عندما خفف عن زينب عذاب القبر ، فعن أنس قال : توفيت زينب بنت رسول الله ﷺ فخرجنا معه فرأينا رسول الله ﷺ مهتما شديد الحزن ؛ فجعلنا لا نكلمه حتى انتهينا إلى القبر فإذا هو لم يخلو من لحده ، فقعد رسول الله ﷺ وقعدنا حوله ، فحدث نفسه هنيهة وجعل ينظر إلى السماء ، ثم فرغ من القبر فنزل رسول الله ﷺ فيه فرأيته يزداد حزنه ، ثم إنه فرغ فخرج فرأيته سري عنه وتبسم ﷺ فقلنا : يا رسول الله رأيناك مهتما حزينا فلم نستطع أن نكلمك ، ثم رأيناك سري عنك فلم ذلك ؟ قال : « كنت أذكر ضيق القبر وغمه ، وضعف زينب فكان علي ؛ فدعوت الله عز وجل أن يخفف عنها ففعل ، ولقد ضغطها ضغطة سمعها من بين الخافقين »[1].

كما أنه ﷺ يضحك يوم عرفة ؛ لكنه ضحك الرضا والفرح ، كما أنه ضحك التشفي من إبليس ، فقد روي عن العباس بن مرداس ﷺ : أن رسول الله ﷺ دعا عشية عرفة لأمته بالمغفرة والرحمة فأكثر الدعاء . فأجابه الله عز وجل أن قد فعلت وغفرت لأمتك إلا من ظلم بعضهم بعضًا . فقال : يا رب إنك قادر أن تغفر للظالم وتثيب المظلوم خيراً من مظلمته ، فلم يكن في تلك العشية إلا ذا ، فلما كان من الغد دعا غداة المزدلفة فعاد يدعو لأمته ؛ فلم يلبث النبي ﷺ أن تبسم . فقال بعض أصحابه : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ضحكت في ساعة لم تكن تضحك فيها ؛ **فما أضحكك أضحك الله سنك** ؟ قال : « **تبسمت** من عدو الله إبليس حين علم أن الله عز وجل قد استجاب لي في أمتي ، وغفر للظالم ، أهوى يدعو بالثبور والويل ، ويحثو التراب على رأسه ، **فتبسمت** مما يصنع جزعه »[2].

ثم إنه ﷺ يضحك قبيل الممات ، عن أنس بن مالك الأنصاري ﷺ ، وكان تبع النبي ﷺ وخدمه وصحبه : « أن أبا بكر ﷺ كان يصلي لهم في وجع النبي ﷺ

---

(١) رواه والطبراني في الكبير (١/ ٢٥٧) وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد : إسناده ضعيف (٤٧/٣) .

(٢) رواه أحمد في المسند (١٦٢٠٧) وقال محققو المسند : إسناده ضعيف . وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (٧٤٢) .

الذي توفي فيه ، حتى إذا كان يوم الاثنين وهم صفوف في الصلاة فكشف النبي ﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف ، **ثم تبسم يضحك** فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبي ﷺ ، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف ، وظن أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة ، فأشار إلينا النبي ﷺ أن أتموا صلاتكم وأرخى الستر فتوفي من يومه».[1]

موقف النبي من ضحك الاستهزاء :

ولقد كان النبي ﷺ يقر أصحابه على ضحكهم ؛ إلا أن يرى مخالفة شرعية ، أو حرمة لله قد انتهكت فيزجرهم ﷺ ، فعن أبي سعيد الخدري قال : بعث رسول الله ﷺ علقمة بن محرز على بعث أنا فيهم ، حتى انتهينا إلى رأس غزاتنا أو كنا ببعض الطريق أذن لطائفة من الجيش ، وأمّر عليهم عبد الله بن حذافة ابن قيس السهمي وكان من أصحاب بدر وكانت فيه دعابة ، وكنت ممن رجع معه ، فنزلنا ببعض الطريق . قال: وأوقد القوم نارا ليصنعوا عليها صنيعا لهم أو يصطلون. قال : فقال لهم : أليس لي الطاعة ؟ قالوا : بلى . قال فما أنا بآمركم بشيء إلا صنعتموه ؟ قالوا : بلى ، قال : أعزم عليكم بحقي وطاعتي لما توائبتم في هذه النار فقام ناس فتحجزوا حتى إذا ظن أنهم واثبون ؛ قال : احبسوا أنفسكم فإنما كنت أضحك معكم . فذكروا ذلك للنبي ﷺ بعد أن قدموا فقال النبي ﷺ :« من أمركم منهم بمعصية فلا تطيعوه»[2]. وفي رواية ابن ماجه : « فإنما كنت أمزح معكم».

وحين ضحكوا من كلام الأعرابي حين سأل عن ثياب أهل الجنة ، قوّمهم النبي ﷺ ، فعن جابر قال : « جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : ثيابنا في الجنة ننسجها بأيدينا فضحك أصحاب النبي ﷺ ، فقال الأعرابي : لم تضحكون! من جاهل يسأل عالماً ؟ فقال النبي ﷺ : « صدقت يا أعرابي ، ولكنها ثمرات»[3].

---

(١) رواه البخاري في العمل في الصلاة (١٢٠٥) ومسلم في الصلاة (٤١٩) .

(٢) رواه أحمد (١١٦٣٩) وقال محققو المسند : إسناده حسن ، وابن أبي شيبة (٥٤٣/١٢) وابن حبان (٤٥٥٨) وابن ماجه (٢٨٦٣) . وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٣١٢) .

(٣) رواه أبو يعلى والطبراني في الصغير والأوسط . وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد : رجاله رجال الصحيح غير مجالد بن سعيد وقد وثق (٤١٥/١٠) .

وفي رواية عند البزار : قال : فقال الأعرابي : مم تضحكون ؟ من جاهل يسأل عالما ؟ ! فقال النبي ﷺ : « لا ؛ ولكنها تخلق خلقاً ، أو تنشق عنها ثمار أهل الجنة ».[1]

وهنا نلحظ : أن النبي ﷺ تجاوب مع الأعرابي ، وأوضح له استفهامه .

وعن زر بن حبيش : أن عبد الله بن مسعود كان يجتني سواكاً من الأراك ؛ وكان دقيق الساق فجعلت الريح تكفؤه ، فضحك القوم منه فقال النبي ﷺ : مما تضحكون ؟ قالوا : من دقة ساقيه ؟ قال : « والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد »[2] .

ولهذا أمرهم النبي ﷺ بالوضوء تأدبا حين ضحكوا على الأعمى الذي وقع في الحفرة وهو يصلون ، روى الطبراني في الكبير عن أبي موسى قال : « بينما رسول الله ﷺ يصلي بالناس إذ دخل رجل فتردى في حفرة كانت في المسجد وكان في بصره ضرر ، فضحك كثير من القوم وهم في الصلاة ، فأمر رسول الله ﷺ من ضحك أن يعيد الوضوء ويعيد الصلاة »[3] .

بيد أن الحق يقال : إنهم كانوا وقت الجد هم الرجال ، يقول بكر بن عبد الله : كان أصحاب النبي ﷺ يتبادحون بالبطيخ فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال[4] .

---

(١) رواه أحمد (٧٠٩٥) وقال محققو المسند : إسناده ضعيف ، ورواه البزار . وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه البزار في حديث طويل ورجاله ثقات (٤١٥/١٠) .

(٢) رواه أحمد (٣٩٩١) وقال محققو المسند : صحيح لغيره ، وهذا إسناد حسن ، ورواه الطبراني في الكبير(٨٤٥٣) وابن أبي شيبة (١١٣/١٢) وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٥٠) .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) سبق تخريجه .